

برل الاشتراك عن سنة

١٠٠ في مصر والسودان

١٥٠ في سائر الممالك الأخرى

ثمان العدد ٢٠ ملياً

الاعمال

يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

بجدة الكبرياء لله في العلم والفن

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المشول

احمد الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ٦٩٨ « القاهرة في يوم الإثنين ٢٤ ذو الحجة سنة ١٣٦٥ — ١٨ نوفمبر سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

نافقَاءُ السِّرْبُوعِ

للأستاذ محمود محمد شاكر

عقله في إدراكها ، ولا يفتي قلبه في الإيمان بشيء منها . وهو
يأبى أن يلتقي عن كاهله هذا السبب الثقيل القادح ، وإن كان
يشق كل الثقة بأنه شيء لا جدوى من تحمله ، ولا من الصبر
على بلواه . هذه ثانية .

وثالثة الأثافي ، كما قال أسلافنا ، أنه إنسان حي النفس
قابل للتلقى ، فكل شيء من حوله يثير في نفسه الفضول ،
وينشر عليه ذلك الحرص الشديد على المعرفة — مجدية كانت
أو غير مجدية ، لا يبالي ، فإذا هو كالمغموم إذا اعترضه ما يموقه
عن الاستقصاء . وأشد من ذلك هو لا يكاد ينسى شيئاً
مما اهتمت نفسه على استقصائه ، إذا قطعه ذلك المارض البنيض
إلى نفسه ، فإذا عاد إلى ما لا بد له منه عاد أشد رغبة في النفاذ
والاستقصاء والبحث . فهو بذلك مُمَسَّكٌ على الحرص على الدنيا
وما فيها بالآتي انطوت عليه جوانحه ، وبأذى فطرت عليه نفسه ،
فهو لا يرى خلاصاً ، أو لا يرى أن له خلاصاً ، من هذه العادة
التمكنة ، أو هذه الخصلة السكينة في أعماق طبيعته .

فهو بهذا الذي وصفت : « يعيش في الدنيا » ، ولكنه
« خارج منها » بشيء آخر ، وإن كان متصلاً بهذا كله أشد
الاتصال . فهو لا يكاد يعبأ بنفسه شيئاً ، بل هو لا يعرف أن
له نفساً موجودة ، أو أصح من ذلك أنه يشك كل الشك في
وجود نفسه ، فهو أبدأً غتلس من نفسه بالبحث عن نفوس
الناس . وهذه مثلية الفضول ، فلها تمنع الرء عن التأمل في

لي صديق ، أطال الله بقاءه ، يعيش في الدنيا وهو خارج
منها . هذا غاية نمته وصِفته : « يعيش في الدنيا » وهو حريص
عليها ، لا حرص البخليل الذي يجمع المال ، ولا حرص المستمتع
المشتهر بالذات ، ولا حرص الطامع الطامع في الخلود — كلا
بل هو حرص على حدته وعلى حياله لا يشبهه في الناس إلا
قليل . هو حرص على التعجب منها ومما فيها ، وهو حرص
على النظر في الأشياء والحيرة في فهمها — واضحة كانت أو مبهمة ،
وهو حرص على استيعاب الحياة كما هي عند الناس من نظرائه
ومن غير نظرائه . ولا يخرج من كل هذا الحرص الشديد على
الدنيا التي تحت عينيه إلا بطول التساؤل وبتنازع الحيرة ،
وبالخوف مما كان وما لم يكن . هذه واحدة .

وصحيب أنه أبدأً مولع بهذا الحرص وكوع الحب بحب
جديد . وهو نفسه يعلم أنه حرص عقيم لا يجدي عليه شيئاً في
معرفة الدنيا ولا في التثبت من شيء من أحوالها ، ولكنه
يزداد به على الأيام وكوعاً وكلفاً وغراماً حتى يستهلك نفسه في
السؤال والبحث والتفكير عن أشياء لا تنفي عنه شيئاً ، ولا يفتي

يكتبون من أجله المعاهدات . بيد أن ذلك لم يكن ، لأن رجالنا يستضعفون أنفسهم ، ويظنون أن هذا الشعب لا يمكن أن يظفر بحقه إلا بعداورة الإنجليز والترفق في معاملتهم ، حتى ينالوا من أيديهم ما يُيسّر لهم وهذا عجب ! بل هو غفلة ، بل هو كدح أحق في سبيل لا شيء . قفل لي بربك كيف يستطيع الإنجليزي أن ينزل لنا عن شيء هو يريد أن يؤمن بأنه حق له ، وإن كان حقا موروثا متحذرا مع أصل البشرية كلها ، وهو الاستقلال والحرية ! ...

خلق الله في دواب الأرض دابة يسميها العرب اليربوع ، تكثر في بلادهم ، وهي نوع من الفأر قصير اليدين جدا ، وله ذنب كذنب الجُرَذ يرفعه صُعدا ، وفي طرفه شبه النّوّارة . ولهذا اليربوع أسلوب فرد في حياطة نفسه وأموره ، حتى إنه يتخذ لمشيروته رئيسا يقف حارسا على جحره اليرابيع يحميها ، فإذا قصّر في الحراسة ، وهجم على اليرابيع من جراء غفلة وإهماله هاجم أقرعها أو أضربها ، انقلبت على ذلك الرئيس ققتلته وأقامت غيره مقامه . ويتخذ لكل يربوع منها جحرة يلوذ بها ، ويجعلها سبعة لها سبعة أبواب . فيبدأ أول ما يبدأ بالجحر الذي يسمونه « الرّاهطاء » فيغطيه بالتراب حتى لا يبقى منه إلا على قدر ما يدخل الضوء منه إلى جحره هذا ، ثم يحفر جحرا يسمونه « الخائيات » يحشو عنده التراب برجليه ليخفي مدخله . ثم يحفر آخر يسمونه « الدّاماء » لأنه يُدّمه بتراب نبيشته حتى لا يتنفذ منه عدوّ ، ثم ينشئ جحرا آخر يقال له « المانقاء » يعلّوه ترابا ، فإذا لجأ ما يخاف اندس فيه إلى عنقه . ثم يحفر « القاصمات » وهو جحر يسدّه سدا محكما لئلا يدخل عليه منه حية أو دابة . ثم يحفر « الناقاء » ويجعل على فيه غشا رقيقا ، فإذا أخذ عليه بقاصماته عدّا إلى هذه الناقاء فضربها برأسه ونفق منها ومرق خارجا . ثم يجعل سابع سبعة جحرا يقال له « الأسفر » يجعل بين القاصمات والناقاء ، يحفره مستقيما إلى أسفل ، ثم يعدل به عن يمينه وشماله عروضا تترص ، يُسميه ليخفي مكانه بذلك الإنفار ، فإذا طلبه طالب بمصا أو سواها نفق من الجانب الآخر

أقوليت إلى كل هذه الحيلة وكل هذا التدبير ! فلن تمحى

نفسه ، فإذا أراد أن يتأملها فكأنما يتأمل شيئا غريبا ليست بينه وبينها وشيجة أو أسرة أو عاطفة . ومن أجل ذلك تراه يدور من حياته هو في مثل الحلقة المفرغة لا يدري من أين بدأ ولا أين انتهى ، ولا يعرف أهذا هو الحق في فهم نفسه أم الحق سواء . ويذهب ويعود في البحث ولكنه لا ينتهي إلا إلى شيء واحد هو أنه لا يدري .

كنت على وشك أن أكتب شيئا حين أسرع هذا المدين إلى التلفون ليألتى هل قرأت جريدة « المصري » ، وما جاء فيها من الذي سمته « النص الحرفي لمشروع اتفاقية صدق - ييفر » ، وبروتوكول الجلاء والسودان » : وذلك في عدد الأحد ١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٦ ، وكنت قد فرغت لساعتي من قراءته ومن التعجب لما جاء فيه . وأنا لا أستطيع أن أطمئن إلى نص مختلس لا أدري أحق هو أم باطل ، ولكني قرأته فإذا لم يكن هو النص فكأنه هو ، لأنه أشبه مُنوّج بحقيقة الموج . ولا أظن أن الإنجليزي يبلغ بهم صدق الطبيعة أن يقولوا في السياسة شيئا على وجهه وعلى استقامته ، فلذلك خُيل إلى أن في هذا النص طرفا من الحقيقة الدالة على طبيعة الاعوجاج في السنة هؤلاء الساسة الإنجليز ، ولست أعجل إلى مثل هذا النص المختلس فأقول في عبارته قولاً ، فإن المجلة في مثل هذا شيء لا غناء فيه ، كما لا غناء لك في إقناع الإنجليزي بأن الحق الذي لك هو حقك ، إذا كان الإنجليزي يرى أنه ليس حقا لك ، وإن ظاهر نك الدنيا كلها على حقك .

ونحن منذ كانت سنة ١٩١٩ أخذنا نجعل كيف بما ملّ هؤلاء الناس ، فإن ذلك الخطل الذي ضرب على آذاننا وأبصارنا وقلوبنا ، والذي يسمونه « المفاوضة » قد جرفنا في عباب متلاطم من الحيرة والضلال ، فما نكاد نبصر ولا نرى ولا نفعل شيئا من حقيقة هذا الشعب الإنجليزي أو ساسته الذين يتصرفون في أمور الدنيا كأنهم وارثوها وأصحابها الذين تلقوا مقاليدها من يد الله القدير العزيز . وكنت أظن أن التجارب قد حشكت رجالنا فمرفوا مواعيد هؤلاء القوم ، وأدركوا كيف تكون مواعيدهم منذ علا أمرهم في الأرض ، وكيف كان تاريخ معاهداتهم منذ كان لهم شأن في هذه الدنيا

معنا شيئاً لم يردّهم خجل ولا حياء عن نكت مثله وإخلافه ، بل أكبر من ذلك أنهم فعلوا نقيضه ودافعوا عن فعله بمثل القوة والبلاغة التي كانوا يزعمون بها لأُم الأرض أن تعينهم في أيام محنتهم وبلوهم !

ومن عجائب الإنجليز أنهم يعلمون علماً ليس بالظن أنهم معتدون متفطرسون ظالمون ، يأكلون الحقوق أكلاً لا يرعون فيه حرمة ولا ذمة . ومع ذلك فهم من طول ممارستهم للنفاق قد انتهوا إلى أن أقنعوا أنفسهم بأن هذا الاعتداء وهذه الفطرية وهذا الظلم ليس له وجود حقيقي ، بل العكس هو الصحيح ، وهو أنهم وحدهم دون سائر العالمين أهل العدل والنصفة والتواضع ، وأنهم هم الذين جاءوا إلى الدنيا ليردوا الحقوق إلى أهلها ، وأنهم هم القوّام على هذه الرسالة السامية . ولذلك ترى كلام رجالهم كلاماً نيراً مضيقاً فائقاً ساحراً إذا عرضوا المعنى الحرية وما أطاف بها ، ويُخيل إليك أن إيمانهم بهذه المثل العليا إيمان لا يعتوره نقص . وهذا حق ، ولكمهم إذا جاءوا إلى تنفيذ ما يقولون رأيهم أهل بغي وعدوان فيما ترى ويرى الناس ، ولكمهم هم يصرون على أن هذا هو الحق الذي لا يحصى لك ولا للناس عن الأخذ به ، تقول : وإن كان بغيًا وعدوانًا ، فأقول : وإن كان بغيًا وعدوانًا !

والإنجليز يرى أن هذه الأمانة التي حملها هي الأمانة ، وأنه مؤدبها على وجهها ، فإن أنت خالفتها وزعمت له أنه يجوز عليك جوراً عبثياً قال لك : إنك شديد الماكرة مواعٍ بالجدال ، ويحاول أن يبسط لك الأمر بسطاً حتى تقتنع بأنه غير ظالم ، بل هو العادل الذي لا يعرف العدل أحدٌ سواه . ومن شاء أن يناقض هذا الذي أقوله فليُنظر إلى حجة هذا الشعب في موقفهم أو احتلالهم للهند ، وفي احتلالهم لمصر من أجل الهند . فالهند مستعبدة ظلمًا وجوراً ، وهم يريدون أن يحلّوا بقاءهم في مصر ، لأن فيها قناة السويس ، وهي التي تؤدي أو تسهل الطريق إلى بلاد الهند . فإذا خرجت القناة من أيديهم كان ذلك وبالا مستطيراً على مصالحهم في الهند ! فينبغي عندهم أن ترضى مصر بالأمر الواقع ، وهو بقاؤهم حراساً على القناة ، لئلا تضيق مصالحهم في البلاد التي استعبدوها واستذلّوها وأفتروا أهلها وأكلوا أموالها

فإنك واجدٌ في الخلق الإنجليز أكثر من هذا مداورة وتقلُّب وإلغازاً وصراوغة . والإنجليز أنفسهم يعلمون أنهم كذلك وأنهم يخفون في سرائرهم ما لو اطلعت عليه لاستصغرت من احتيال هذه الدابة ما استكبرت . ومن أراد أن يدخل على الإنجليز جحرهم وقم في متاهة لا يدرى معها من أين ولا إلى أين . فنن المجيب الذي لا ينقض عجزه أن يظن رجالاً من رجالنا أن في طوقهم أن يراوغوا الإنجليز فيستولوا على جحرهم المحتفرة في طبائعهم وأخلاقهم وعقولهم .

إن معنى المفاوضة والمهادنة بيننا وبينهم هي أن يسي الإنجليز جُهدهم حتى تطمئن إليهم ، فإذا فعلت أخذوا بيدك وقادوك إلى مثل جحره البريوع ، فيدخلون بك من واحدٍ إلى ثانٍ إلى ثالث ، حتى إذا خيل إليك أنك قد تمكنت منهم « تفقوا » من ناقضهم بأسهل مما كنت تتصور . وهكذا شهدنا وعمرقنا وخبرنا منذ احتلوا بلادنا في سنة ١٨٨٢ ، فوعدوا الدنيا كلها — لا نحن وحسب — بالجلاء الناجز ، ولكنه ظلّ وعداً إلى هذا اليوم . وجاءونا اليوم يعدوننا أيضاً أن يجملوا عنا بعد عام أو عامين أو ثلاثة — أي ذلك كان . فن الذي يصدق هذه اليرابيع ؟ ومن شفيهم وضميهم في كل هذا ؟ أهو الخطأ المكتوب ، أم اللفظ المنطوق ، أم سوابق العهود المؤكدة والمواثيق الغليظة !! إنها لفظة أن يرى امرؤ نفسه أقدر على خديعة هذه اليرابيع من قدرتها هي على خديعته . وليس يعلم شيئاً من ظن أن الإنجليز يتفخسون بأيديهم من شيء هو كائن في أيديهم . فالإنجليز يرايبع بالطبع والممارسة ، حتى إن « النفاق » الذي علمته في أخلاق اليرابيع ، قد صار أيضاً خلقاً من أخلاقهم يشهدونهم به على أنفسهم ، ويشهد عليهم به تاريخهم منذ كان لهم تاريخ . وهذا النفاق الطبوع هو الذي جعلهم أقدر شعوب الأرض في كل شئون السياسة . وما مواعيدهم ، ولا معسول ألفاظهم ، ولا روعة دعوتهم إلى الحرية ، ولا كمال إخلاصهم في تحرير الجنس البشري من غوائل النازية ، ولا صبرهم على الكاره في سبيل المثل الأعلى للإنسانية — كل ذلك ليس يبيد عنا في زمن الحرب الماضية . لقد نطقوا بكل شيء ، ولكمهم لم يحققوا شيئاً مما نطقوا ، فكيف ترضى لأنفسنا أن تؤمن بأنهم فاعلون